

الفصل التاسع: أدب الشواطئ

كما اهتم أديبنا الدكتور زكي مبارك بالحديث عما أسماه «أدب المعاش» تحدث أيضًا عما أسماه «أدب الشواطئ»... وقد جمعتُ مادة كتاب «أدب الشواطئ» وتعوزني النقود لطبعه... والآن لنعش مع بعض ما كتبه زكي مبارك عن أدب الشواطئ على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٦/٤/١٩٤٧.

يقول:

«البلاد المصرية بلاد بحرية؛ لأنها تقع على بحرين عظيمين: البحر الأبيض، والبحر الأحمر، وهذا يوجب توجيه قرائح الشعراء إلى وصف البحار وما فيها من جمال يفتن العقول ويشوق القلوب، ومع ذلك فثروة الشعر المصري قليلة في هذه الناحية، مع الاعتراف بأن للشاعر علي محمود طه قصائد جيدة في وصف الحياة البحرية، وكذلك الشاعر عبد اللطيف النشار، والشاعر عثمان حلمي.

بعد رجوعي من بغداد في سنة ١٩٣٨، رأيت أن أقضي أيامًا في الإسكندرية أشهد فيها ملاعب الجمال فوق الشواطئ، وأتذكر العهد الذي قلت فيه قصيدتي بعنوان: «بعد فراق الشاطئ» ردًا على قصيدة الشاعر «أحمد زكي أبو شادي» بعنوان «العودة»...».

وقد نظمها الدكتور أبو شادي في قطار البحر عائدًا من الإسكندرية في صحبة صاحب ديوان «ألحان الخلود» - يقصد نفسه - مساء ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٣ وأهداها إليه.

يقول الشاعر الدكتور أحمد زكي أبو شادي في قصيدته:

العودة

وداعًا للرمال وللمغاني
أتذكر كيف كان الموجُ يجري
وقفنا في جوارِ اليمِّ سَكَرَى
نرى في البرِّ ألوانَ التناجي
كانَ الحسنُ ذابَ بكلِّ لونٍ
سكرنا سكرةَ الحرمانِ حتى
وهذا الجوُّ يملؤه حنانٌ
وأبنا أوبئةَ المهزوم لكن

وحين مضى القطارُ يقل وجدي
رأينا الحسنَ وثابًا جريئًا
فعوضنا من التبريح صفوًا
وأضحكنا من السفر المواتي
رموه خنادقًا وقلاعَ حربٍ
وذا طَسْتُ الغسيلِ يُدأش حتى
وتمضي الغاياتُ على تثرنٍ
فسبحانَ المكافئِ والمعزِّي
لقد عُدنا بقهقهةٍ وأنسٍ
ووجدك كالرفيقِ من الرفيقِ
يحاصرنا كأحلام العشيِّ
ومن ضُور الخشونةِ بالرفيقِ
بالوان الأثاثِ وبالزعيقِ
فصار مدى الطريقِ من المضيقِ
يزمجر بالرعودِ وبالبروقِ
تثني النورِ في الجوّ الصفيقِ
وما أدنى الرجاءِ بكلِّ ضيقِ
وأحلام الرِّشاقةِ والرشيقي!

أبو شادي

وردّ صاحب ألحان الخلود -أي الدكتور زكي مبارك- بعد شهر من ذلك التاريخ على الدكتور أبي شادي فقال تحت عنوان:

بعد فراق الشاطئ

أبا شادي، وأنت فتى طروب	أسير العين في قلب طليق
تذكرني؟ وهل أنسيت يوماً	جمال إسكندرية يا صديقي؟
وكيف؟ وفوق شاطئها المندى	يحوم القلب موصول الخُفوق

رعاه الحبُّ من شطِّ جميلٍ
بهَيِّ الرمل تحسبه سُجوفًا
أطوفُ به فيغلبني خُشوعي
خفيف الروح مصقولٍ أنيقٍ
مطرزة بحبَّاتِ العتيقِ
كأنِّي طفئتُ بالبيتِ العتيقِ

أيا حَرَمَ الظباء أنرتَ روعي
يراك الأكمهون^(١) حمى مباحًا
ولو كشفت غشاوتهم لقالوا
بمشكاةٍ من الحُسنِ الرفيقِ
يذكِّرهم بأسواقِ الرِّيقِ
صبايا الخلدِ تسبح في الرحيقِ!

رجعتُ إلى الشواطئ بعد شهر
فألقيت الخريفَ جنى عليها
وعذت مرَّوع الأحلام أشكو
أشقُّ إلى الملاح بها طريقي
جنايته على الدَّوح الوريقي
-ولما أصحَّ- صرَّعاتِ المفيقي

زكي مبارك

ويمضي فيقول:

«ثم شرعت في تأليف كتاب اسمه «أدب الشواطئ» وأعلنت عنه في مجلة الرسالة، ولكن الحرب دهمتنا فلم يعد من السهل أن أصطاف بالإسكندرية، وما كنت أزور الإسكندرية في أعوام الحرب إلا في مهمة رسمية يوجبها عملي بوزارة المعارف وتلك مهمات موسمها فصل الشتاء.

(١) الأكمهون: مفردها: أكمه، والأكمه هو من وُلد أعمى.

ولكن فكرة «أدب الشواطئ» التي أذعتها في مجلة الرسالة سنة ١٩٣٨ وجدت مكاناً في صدر أحد الشبان، وهو الشاعر مصطفى عبد الرحمن، فقال في الشواطئ عددًا من القصائد الجياد.

تحت يدي ديوان نفيس اسمه «ليالي الشاطئ» والقصائد التي في هذا الديوان ليست جميعًا في الشاطئ، فهي موزعة بين أغراض مختلفة النوازع، ولكن أهمها ما جاء في الشاطئ، ومن هنا كان اسم الديوان، ولنقرأ هذه القطعة الحزينة للشاعر مصطفى عبد الرحمن:

أنكر الشطُّ وجودي حينما سرتُ عليه
وتناسى كل عهد صاناه قلبي لديه

أكتفي بهذا وأقول في عبارة صريحة: إن هذه الباكورة تشهد بأن صاحبها من نوابغ الشعراء».

ولشاعرنا زكي مبارك قصائد عديدة عن الإسكندرية عروس البحر المتوسط... وقد جمعت بعضها في ديوان تحت عنوان «شط إسكندرية»، ويضمها مع بقية قصائده عن الإسكندرية كتابه «أدب الشواطئ»...

كما كتب أديبنا الدكتور زكي مبارك كثيرًا عن الإسكندرية وعن ليالي الإسكندرية وبحر إسكندرية... وعن أدباء وشعراء الإسكندرية... يقول على صفحات جريدة البلاغ اليومية بتاريخ ١٠/٢٢/١٩٤٦:

«أول عمل أقوم به حين أدخل الإسكندرية هو شراء الورق... دخلت المكتبة فقابلني مديرها ومعاونوه بالترحيب، وقالوا: نحن ننتظر مقالاتك في البلاغ بشوق شديد، فقلت: هذا يسرني، وأنا أستمد نشاطي من قرائتي، والأدب مطلوب، وهو غذاء الروح، فيقول مدير المكتبة:

«ولكنه مع الأسف مقصور على فئة قليلة». قالها بحرارة.

كان بين الحاضرين رجل إسكندراني لا أعرفه فقال:

أجب يا دكتور؟

فقلت: أجب الشاعر الذي قال قبل أجيال:

أما ترى صحنة ضفت فواكهة للتين قوم وللجُمُيز أقوام

فقال الأديب الإسكندراني: هذا هو الجواب.

فقلت: الناس يحتاجون إلى بائع الفول المدمس قبل أن يحتاجوا إلى

كتاب مفيد، فهل ترى أن نشتغل جميعًا ببيع الفول المدمس، وأن نصير

جميعًا فوالين؟

كانت أيام الحرب أقسى الأيام التي عانيتها في حياتي، فقد كنت أفتش

أكثر من عشر مدارس بالإسكندرية والغارات تثور من ليلة إلى ليلة، وكان

يجب أن آوي إلى بيتي قبل الغروب، ولكن كيف أمضي الليل الطويل

بالاعتكاف؟ أفضيه في كتابة مقالات لمجلة الرسالة، ولكن أين الورق؟

كان الورق انعدم في الإسكندرية بعد أن كان يباع بتراب الفلوس، وفي

إحدى العصريات وأنا أبحث عن الورق الذي أفضي في تسويده تلك

الليالي السود، وقف أحد الشبان في وجهي ليقول: تعرفني يا دكتور

مبارك؟ أنا تلميذك بالليسيه فرانسيه... التلميذ الذي كنت تسجنه في أيام

الآحاد لينجز ما قصر في إنجازاه من الواجبات.

الآن تذكرتك.

تعال معي.

إلى أين؟

إلى مكتبتي يا دكتور.

ومضيت معه إلى مكتبته؛ فقدم إلي كراريس من الورق اللطيف، فقلت: إنك تعرف يا تلميذي العزيز أنني لا أقبل شيئًا بالمجان، فما ثمن هذه الكراريس؟

فقال: أنا تاجر ورق، وأنا أقدم عينات إلى الزبائن بالمجان، فأنا لا أهدي إليك شيئًا وإنما أقدم عينات.

ثم تفضل فأوصلني بسيارته إلى بيتي ليطمئن على حياتي في أيام كان من يسير فيها بعد الغروب معرضًا للموت.

إن أهلنا ستتريس يقولون: «كله سلف ودين» فوفائي لأساتذتي هو السبب في وفاء تلاميذي، وتلاميذي كلهم أوفياء.

إنهم يحبونني أصدق الحب، والتلميذ له عينان، فإذا كان في الصف ثلاثون تلميذًا فهم ستون عينًا، وتلك العيون جميعًا تراقب الأستاذ، وهي تحبه إذا كان يتعب في تحضير الدروس، فما في الدنيا تلميذ يطيب له أن يخيب ولو كان من أشقى التلاميذ.

كان رأيي أن سقوط التلميذ عيب في وجه الأستاذ قبل أن يكون عيبًا في وجه التلميذ».

أيضاً وعلى صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٩٤٧/٦/٣ يقول زكي مبارك تحت عنوان (أدباء الإسكندرية):

«أنا أعرف كيف ألقاهم وأفرح بلقائهم أضعاف ما يفرحون بلقائي، ولكنني مأخوذ بقول أبي العلاء:

لو اختصرتهم من الإحسان زرتكمو والعذبُ يهجر للإفراط في
فهذا يريد أن أتغدى في داره، وهذا أن أتعشى معه، وثالث أن أكون
ضيفه في البوريفاج.

إنها مكارم تفوق الوصف، ولكن لي شواغل تشغلني عن نفسي وهي
الخلوة إلى قلبي.

آداب الإسكندرية عظيمة جداً، هم بآدابهم يصورون عظمة الأخلاق
العربية الإسلامية.

إن الحزن يعتصر قلبي حين أتذكر أنني أفارق الإسكندرية ولم أسمر
مع أصدقائي أمثال خليل شيبوب، وصديق شيبوب، وعثمان حلمي، وعبد
اللطيف النشار، وعلي البحراوي».

إلى الثغر

تحت هذا العنوان بتاريخ ١٩٥١/٥/٢٢ كتب زكي مبارك على صفحات
جريدة البلاغ يقول:

«مضيت إلى الإسكندرية وفي نفسي أنني ماض لأداء واجب لا للنزهة؛
مع أن أداء الواجب فيه أنس للنفس، فلا يمكن القول بأنه نفسيًا أروح من
شعور الرجل بأنه سيكون في ضيافة البحر لغرض واحد هو التمتع برؤية
اللؤلؤ المنشور فوق الرمال.

قطارات البحر - على أيامها السلام - كانت توحى بمعنى جميل، هو
أنك في صحبة ناس جاءوا جميعًا للنزهة، والفرح يعدي كما أن الحزن
يعدي، ولقد كان الإقبال على تلك القطارات شديدًا جدًّا، فكنا نحجز
التذاكر قبل الميعاد بيومين.

أنا أنتظر أغسطس لأزور البحر، وليس في بالي أنني حضرت لأداء
واجب. قضيت ليلة السفر سهران في مراجعات أدبية وفلسفية، فغلبني
النوم ولم أستيقظ إلا عند الوصول إلى الإسكندرية، ولم يجد شيطاني
بغير هذه الأبيات:

إلى الثغر، عاش الثغر، أركض	فبعد ساعات يلوح لنا البحر
وأشربه ملحًا أجاجًا وإنه	لفرط هيامي بالجمال هو الخمر
غرائب حسن في مغانٍ جميلة	كأن تراها في تأرجحه زهُرُ»

أدب البحر

تحت هذا العنوان على صفحات ديوانه الثاني «ألحان الخلود» كتب زكي مبارك مقدمة طويلة للقصيدة التي حملت هذا العنوان، وهي التي سنقدمها بعد لحظات. وكان كعادته في بعض قصائده يكتب مقدمات نثرية... وقد كتب مقدمة لهذه القصيدة تصل إلى سبع صفحات من الحجم الكبير، ولهذا سأنقل منها فقط السطور التي تهمننا كمقدمة للقصيدة...

يقول:

«كانت جامعة أدباء العروبة^(١) دعنتني إلى إنشاء قصيدة في (مهرجان أدب البحر) فصادفت الدعوة هوى في نفسي، كالذي وقع يوم دعنتني إلى الاشتراك في مهرجان أدب القمر ومهرجان أدب الربيع.

وأنا آخذ أدبي من وحي الحياة لا من وحي الخيال، ولهذا سافرت إلى الإسكندرية مرتين لأنظم القصيدة وأنا في رحاب الأمواج.

ولكن في القصيدة عنصرًا أساسيًا لم أهدأ إلى مكان الوحي فيه، وهو البقعة التي عانيت فيها غياهب الاعتقال، فرجعت إلى الإسكندرية في يوم

(١) أسس جامعة أدباء العروبة صاحب المعالي المغفور له إبراهيم دسوقي أباطة باشا المشهور ب: أبو الشعراء، وكان زكي مبارك من المؤسسين لجامعة أدباء العروبة.

الأربعاء الماضي لأبحث عن ذلك المكان عساني أبلغ من استيحاءه بعض ما أصبو إليه...

بعد المغرب بساعتين أخذت سيارة ومضيت إلى مواجهة بقعة تجاور مسجد سيدي بشر... وبعد لحظات رأيت الصخرة المنعزلة عن الشاطئ بمسافة تُعجزُ أمهر السابحين عند ثورة العواصف...

كان الإنجليز سمحوا للمعتقلين بأن يستحموا في البحر مرتين في الأسبوع، فكنت أوغل في البحر إيغالاً شديداً، فيرفع الجنود بنادقهم ويهددونني بالرصاص إن لم أرجع إلى الشاطئ، كان الوهم عندهم أنني قد أسبح إلى أن أصل إلى الشاطئ الفرنسي... وقفت في مواجهة هذه الصخرة في هدأة الليل، والقمر يداعبني وأداعبه برفق وحنان... وطاب لي أن أرى مواطن الاعتقال، فلم أر الصحراء التي كنت أعرف، وإنما رأيت منازل جديدة تجهل أنها فوق رمال كنت أصطلي بناها قبل سنين تزيد على العشرين...».

ثم يقول:

«الذي يهمني هو نظم القصيدة في حدود ما يوحي به تاريخ الاعتقال... القصيدة تنقسم إلى عناصر أصلية وعناصر فرعية، والعناصر جميعاً مشتبكة إلى أدق معاني الاشتباك.

وأهم تلك العناصر أن السلطة العسكرية البريطانية أرادت أن تأخذ مني تعهداً بالتوبة من الوطنية، فكان الجواب، أنني لن أتوب ولن أتوب ولن أتوب.

وفي القصيدة معنى جديد: هو شرح السبب في دهاء الساسة الإنجليز، وبيان ذلك أنهم نشأوا في جزيرة يحيط بها الماء من جميع الجوانب، فلم يكن لهم زاد غير الصيد، والصيد يوحى إلى الصائدين معاني الغدر والختل والدهاء، وجزيرتهم يكثر فيها الضباب فلا يرون من الطريق غير أشبار في بعض الأحيان، ولهذا تقوم سياستهم على التحسس والتلمس والانتظار.

ومن مجموعة هاتين الصورتين تعرف السبب في انطباع الإنجليز على لطف القول وسوء الفعل:

ملائك في تساميهم إذا نطقوا وفعلمهم مثل بغي القط بالفار
جنت عليهم مع الأيام بيثتهم إن الضباب دخان النار بالقار
الصيد مهنتهم والبحر ساحتهم ما للمصايد إلا كلُّ خنَّار

وقد أشرت في القصيدة إلى أنها الأنهار المصرية تفردت بالسماك الرعاد؛ وهو سمك كهربائي لا يمكن لأحد أن يمسه وهو في الماء، ولكنه يفقد هذه الخصوصية إذا خرج من الماء. فلنحرص أشد الحرص على النيل ومنايع النيل».

ثم يقول:

«والبحر الأبيض المتوسط اسمه في قصيدتي «بحر العرب» وكان ذلك؛ لأن العرب لم يسموه في كتبهم الجغرافية والتاريخية إلا بحر الشام أو البحر الشامي.

كان موسوليني حين يتحدث عن البحر الأبيض يقول: «بحرنا» وقد رددت عليه يومئذ بخطبة ألقيتها في جمعية الشبان المسيحية بالإسكندرية فقلت فيها: إنما البحر لنا.

أين موسوليني؟ أين بحره؟ إن الطغاة يسطرون آمالهم فوق الأثباح^(١)، أو فوق الرمال.

أما الجوانب الوجدانية في القصيدة فهي مقبوسة من نيران قلبي، والشعر يأخذ وقوده من نيران القلوب.

أما بعد! فهذه المقدمة تشرح الأجواء التي أحاطت بالقصيدة في الليالي الثلاث التي قضيتها بين أنين القلب وهدير الأمواج.

وأنا أوصي قرائي بزيارة البحر من حين إلى حين، فهو من أقوى مصادر الإيحاء، وهو الذي فجر ينابيع الشاعرية في صدري، فقد عبرته أربع عشرة مرة في ذهابي وإيابي من القاهرة إلى باريس.

أكتفي بهذا المقدار من التمهيد للقصيدة لأقول، والقول من معانيه الغناء، والقوالون هم المنشدون في مجالس الصوفية:

شاعرُ البحر إلى البحر يعودُ بالهوى المشبوب والروح المريدُ
إن هذا اللحنَ من هذا النشيدِ هو للبحر وجودٌ وخلود

وطنُ الروم وبحرُ العربِ قد ملكناه بسيفِ الأدبِ
إن يُقْلُ يوماً هنا كان أبي قلت مجدُ الشعر فوق النسبِ

(١) الأثباح: مفردھا: ثبج، وثبج البحر وسطه أو معظمه.

والهوى يَمْرَحُ والروح فتية
تجعل القلب إلى الوادي هدية

أين أيامي برمل إسكندرية
أين أيام ونار وطنيه

غير أوهام سوار وطُيُوف
فارس الحب وقهار الحتوف

لم أعد أذكر والدنيا صروف
شاب رأسي، أترى الشيب يُخيف

إن في قلبي بقايا من صواب
إنها المعصور من ماء السراب

إن في قلبي بقايا من شباب
ما على الأيام إن جارت عتاب

إن هذا البحر لفتح من جحيم
وأعاصير من الكرب المقيم

إن هذا البحر روح من نعيم
في ثناياه خفيف من نسيم

صَبَوَاتُ في ذهابي وإيابي
أنه خُطَّ على متن الغباب

كان لي فيه على عهد شبابي
لم أكن أعرف والحظ كتابي

ما الذي يا بحر في الحب تجود
وسراب في هبوط وصعود

أنا بالشعر وبالنثر أجود
أمل الحب قريبٌ ويعيد

ما لمحزون إلى الصفو طريق
وندى البحر حريق في حريق

جئت وحدي لا أنيس لا رفيق
فُسحة الأيام ضيق بعد ضيق

أشرب الأهواء ريقًا بعد ريق
من غرامٍ هو كأس من رحيق
أنا يا بحر بأهوائي غريق
بالهوى قل لي متى يومًا أفيق

يا دُمِيَّةً صُعْتُهَا من وحي أحلامي
أصوغه من غواياتي وآلامي
جِنِّيَّةُ البحر ماذا أنت صانعة
لا تُنكري كيف كنا والهوى شرف

وأبحر من صباياتٍ وأشجان
وأسلمت خدها للشعر الجاني
من وحي روعي وقلبي ألف
بما هنالك من دُرٍّ ومرجان
قد أسكر الخلق من إنيس ومن
أصغى له من جواه كل مرنان
قصادد هي أمواجٌ موجهة
جنية البحر لو أصغت لنا برزت
شيطانة لو بدت يومًا لكان لها
تبيت تلعب تحت الموج لاهية
إلى الفضاء تعالي واسمعي وتزأ
إذا تغنى وقال الشعر متقدًا

وباللمى العذب جودي
من شاعر فاتك بالحسن هيمان
ورثته أنا عن جدي سليمان
جِنِّيَّةُ البحر عودي
لا تنفري من صعود الشطِّ خائفة
بلقيس أنت وعرش المجد تحت

أيها البحر غناءً وغناءً
أيها البحر لقاءً ولقاءً
أيها البحر سلامٌ وسلام
أيها البحر غرامٌ وغرام

إنني بروحي عندك
تعال يا بحر عندي

فضحتُ بالشعر وجدي

فأضح بقربك وجدك

ما كان عهد تلاقينا سوى زمن
رأيت شطك والأهواء تعصف بي
كان الحديد سياجاً أستظلُّ به
إن أنس لا أنس والأيام ذاهبة
كان اصطخاب هدير الموج
الإنجليز رموني هاهنا سَحْرًا
كانوا يخالون لا صحت مخايلهم
قد استتابوا رجالاً كان أشجعهم
تعهدوا أن يتوبوا من غوايتهم
بقيتُ وحدي وأجنادٌ مدججة
عني عَفُوا لا عفتُ عنهم جرائمهم
ملائكٌ في تساميمهم إذا نطقوا
جنت عليهم مع الأيام بيثتهم
الصيدُ مهنتهم والبحرُ ساحتهم
ففي نهرنا الرعاءُ
لا تخدعوا الصياد
إني بشعري سأطويكم وأنشركم
عُدْتُ للبحر وما عاد الفؤادُ

مضرج بنجيع السيف والنار
عصف الإسار بليث الغابة
ظَهْرًا وكان نديمي عند أسحاري
أني سُجِنْتُ مع الأحرار في داري
كأنما هو من صحبي وسَمَّاري
والدهر يضرب أحجارًا بأحجار
أني أقلم عند السجن أظفاري
عند الكريهة مأمورًا لأمار
والتوبُ في بعض معناه من العار
حوارش هالهم عمدي وإصراري
من حائثين بصدق الوعد غدار
وفعلهم مثل بغى القط بالفار
إن الضباب دُخَانُ النار بالقار
ما للمصايد إلا كلُّ خَتَّارٍ^(١)
ففي نهرنا وخذة
لا تُخلفُوا وعدة
يا جاهلين بإيماني وتبياني
إنه من محنة الوجد يُعَادُ

(١) الختار: الماكر المخاتل يخبث شديد.